الهوية المحلية وتحديات العولمة الثقافية – قراءة من منظور سوسيوثقافي–

د. رحاب مختار– جامعة مسيلة

أ. بغزو صبرينة – جامعة خنشلة

الملخص :

لقد أصبحت هوية الدولة الوطنية أو القطرية، كما أصطلح على تسميتها، عرضة للتهديد في زمن العولمة الثقافية، من جراء الحرب الحضارية التي تشنها الدول القوية في زمن العولمة، و كما يذكر العديد من الباحثين أن من أبرز الخصائص التي تميز عصر العولمة على المستوى الاقتصادي هو سيطرة الاقتصاد المعولم الذي يقع خارج نطاق الدولة القومية لصالح الشركات المتعددة الجنسيات، وعلى المستوى السياسي تزايد سطوة النخب التكنوقراطية وانحصار النخب السياسية، وانفلات قيادة السيادة الوطنية لصالح الإمبراطوريات الاقتصادية الكبرى.

وعلى المستوى الثقافي والإعلامي سيطرة ثورة المعلومات والاتصال، وانتشار ثقافة الاستهلاك الغربي على كافة المستويات، وبالتالي أصبحت الهوية الوطنية أمام تحديات من أبرزها التمسك بالوجود والحضور لتحقيق الديمومة والاستمرار، مع مواكبة ما يحدث من تطورات دون الذوبان والفناء في ثقافة الآخر.

Summary :

the identity of the national state or country, as termed Has become, threatened in a time of cultural globalization, as a result of the civilizational conflict waged by powerful states in the era of globalization, and as mentioned by many researchers that the main characteristics of the era of globalization on the economic level is control of the globalized economy, which is located outside the scope of the nation-state in favor of multinational corporations, and on the political level, the increasing influence of technocratic elites and the decline of political elites, and the loose leadership of national sovereignty to the major economic empires.

And on the level of cultural and media dominance of information and communication revolution, and the spread of the western culture of consumption, the at all levels, and thus the national identity becomes in front of challenges, notably to stick to exist and the audience to achieve permanence and continuity, while keeping abreast of developments without melting and yard in the culture of the other.

مقدمة:

إن موضوع الهوية لدى كل الحضارات والأمم والدول والمجتمعات أصبح يحتل حيزا كبيرا في وقتنا المعاصر، فأصبح يتصدر الخطابات السياسية والنقاشات الفكرية، وبصورة أوسع لدى معظم الدول النامية. ولعل السبب الرئيس في ذلك هو التحديات والمخاطر التي تفرضها العولمة على هذه البلدان والشعوب، سواء على المستوى الاقتصادي أو الثقافي.

يذكر العديد من الباحثين أن من أبرز الخصائص التي تميز عصر العولمة على المستوى الاقتصادي هو سيطرة الاقتصاد المعولم الذي يقع خارج نطاق الدولة القومية لصالح الشركات المتعددة الجنسيات، وعلى المستوى السياسي تزايد سطوة النخب التكنوقراطية وانحصار النخب السياسية، وانفلات قيادة السيادة الوطنية لصالح الإمبراطوريات الاقتصادية الكبرى.

وعلى المستوى الثقافي والإعلامي سيطرة ثورة المعلومات والاتصال، وانتشار ثقافة الاستهلاك الغربي على كافة المستويات، وبالتالي أصبحت الهوية الوطنية أمام تحديات من أبرزها التمسك بالوجود والحضور لتحقيق الديمومة والاستمرار، مع مواكبة ما يحدث من تطورات دون الذوبان والفناء في ثقافة الآخر.

واختلفت النخب الحاكمة والمثقفة في بلدان العالم الثالث حول هذه التحديات المفروضة فهناك من رأى أن الحل في نقض ما تبقى من عرى ومكونات التراث- والهوية كجزء جوهري منه- ومواكبة العولمة من خلال الارتماء في أحضانها، وهناك طرف آخر تبين الحل له في ضرورة الاحتماء بأسوار ثقافتنا وهويتنا ودفع شرور العولمة وتحدياتها، وطرف وقف موقفا وسطا، فرأى أن تفادي المخاطر والتكيف مع الآخر يكمن في التمسك بهوية وخصوصية محلية منفتحة على العالم، ولديها القابلية لمحاورة الآخر والاستفادة من منجزاته ولديها القدرة للاغتناء والتجدد دون الذوبان وبالتالي الزوال.

في ظل هذه الرؤى المتضاربة ارتأينا من خلال هذا المقال أن نبرز أهم التحديات التي تتعرض لها هويتنا، مع اقتراح آليات للتكيف والتعاطي الايجابي مع الآخر في زمن العولمة؟.

أولا: تحديد المفاهيم:

1- الثقافة:

يرى هرسكوفيتز في كتابه " أسس الاناسة الثقافية" أن الثقافة ظاهرة جامعة من حيث أنها مكتسب من المكتسبات البشرية، لكنها ظاهرة فريدة من حيث كل من تعبيراتها المخصوصة، وأنها ثابتة ودينامية في الوقت نفسه، إذ أنها تحتفظ بتعديلات دائمة، وأنها تحدد سلوكاتنا، لكنها تحددها أحيانا كثيرة بصورة لا واعية، وأما كونها ظاهرة جامعة فلأنها تتجلى عبر مختلف مجالات الحياة المجتمعية، من أساليب تحصيل المعاش، السساتيم الإنتاجية، والتقنيات، والمؤسسات، والتنظيم العائلي والسياسي، وخاصة عبر المعتقدات وفلسفة الحياة والتعبير الفني[1]

ويرى العديد من الباحثين أن أية دراسة مقارنة للثقافات تقوم على فكرة أساسية قوامها أنه مهما كانت هناك من جوانب للاختلاف بين الثقافات الإنسانية، إلا أن ثمة مظاهر عامة مشتركة تميزها جميعا وتجعلها قابلة للتحليل العلمي. ولذلك ارتأينا وتماشيا مع موضوع هذه المداخلة أن نتتبع الهوية كمدلول وعلاقتها بالثقافة من ناحية وجودها وأبرز التطورات والتحولات التي عرفتها، وهذا بلا شك قد يساهم في إيجاد رؤية واضحة ومن خلالها خطط علمية هادفة لإلقاء الضوء على جملة المشكلات التي تعاني منها العديد من الشعوب والجماعات والدول بسبب موضوع الهوية وتجلي ذلك في شكل صراعات داخلية، أو اعتداءات خارجية.

2- الهويــة:

يعرف الجرجاني الهوية على أنها:" الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق." [2]

فهوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة هي جوهرها وحقيقتها، ولما كان في كل شيء من الأشياء إنسانا أو ثقافة أو حضارة " الثوابت " و" المتغيرات" فان هوية الشيء هي ثوابته التي " تتجدد" ولا "تتغير" تتجلى وتفصح عن ذاتها، دون أن تخلي مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة، إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب، دون أن تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات.[3]

لقد ورد في قاموس" **Dictionnaire de l ethnologie et de l anthropologie**" أن الهوية لم تعد تمثل أمرا واقعا أي توزيعا واضحا للجماعات في مدى غير محدد المعالم الزمنية، فقد أصبحت مفهوما نسبيا يرتبط في نفس الوقت بالنزاعات وموازين القوى، وباستقرار البنى وتوازنها، انه مسار يتشكل، وضع تاريخي، تشكيل استيطاني يجب أن يفهم كما هو، وارتكز الاهتمام بالأبعاد العاطفية والنفسية للهوية والى أواليات اكتساب ادراك الهوية من خلال تربية الطفل وعالمه الاجتماعي، ويبقى دوما مفهوم الهوية مفهوما داخليا يعكس معطيات خارجية. [4]

يذكر المفكر ألفرد جروسر **(Alfred grosser)** بأن مفهوم الهوية يمكننا اعتباره من المفاهيم القليلة التي حصل بشأنها تضخيما معرفيا. ولعل مرد هذا التضخيم لمفهوم الهوية هو وقوع هذا الموضوع موقع التقاسم والاشتراك والتناول البحثي بين تخصصات عديدة داخل حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية من التناول السوسيولوجي إلى تناولها من قبل العلوم السياسية ، إلى علم الإنسان"الأنثروبولوجي" إلى الاشتغال القانوني والسيكولوجي، وهو الأمر الذي حال دون أن ترسو سفن هؤلاء المبحرين على مفهوم واحد بمدلولات محددة حول الهوية.

3- العولمة:

لقد أخذ مصطلح العولمة ، الكوكبة، الكونية، العالمية، حيزا كبيرا من اهتمام الباحثين والأكاديميين وشاع استخدامه بصورة أوسع على مستوى أجهزة الإعلام، واتخذ أبعادا سياسية واقتصادية

وثقافية، وفي عقد التسعينيات من القرن المنصرم حدث اتفاق أو إجماع على اتخاذ مصطلح العولمة كمعبر عن الظاهرة على غرار المصطلحات السالفة الذكر، ومع هذا الاتفاق ظلت صعوبة إيجاد تعريف جامع مانع من الصعوبة بمكان، وأصبحت مسألة صياغة تعريف دقيق لها مسألة معقدة وشائكة، نظرا لتأثر كل باحث بخلفيته الثقافية أو انتمائه الأيديولوجي ومن أبرز التعريفات نذكر:

إن مصطلح العولمة يعود إلى الكلمة الانكليزية global والتي تعني عالمي أو دولي أو شامل، وأخذ مصطلح globalisation ترجمته في اللغة العربية " الكونية، الكوكبة، العولمة". وكان لفظ العولمة قد أخذ انتشارا واسعا.

فيما يذهب هوبرت فيدرين (Hubert vedrine) إلى أنه لا يمكننا النظر الى العولمة على أنها فكراً ولكن يمكن مقاربتها فكريا على أنها وقائع تقنية فرضت نفسها على الساحة الكونية، الأمر الذي أحدث قلقا لدى الكل، وبصورة أخص الدول ومؤسسات القطاع الخاص، إنها ظاهرة لا تمس أي اقتصاد، وإنما بالحصر اقتصاد السوق والاستهلاك، واقتصاد تحويلات العملات والتدبير الاستثماري.[5]

ويرى محمد عمارة أن العولمة هي اجتياح الشمال للجنوب، اجتياح الحضارة الغربية ممثلة في النموذج الأمريكي للحضارات الأخرى، وهي التطبيق العملي لشعار" نهاية التاريخ" الذي أرادوا به الادعاء بأن النموذج الغربي الرأسمالي هو القدر الأبدي للبشرية جمعاء، وهو تطبيق يستخدم في عملية الاجتياح أسلوب " صراع الحضارات" الذي يعني في توازن القوى الراهن أن تصرع الحضارة الغربية ما عداها من الحضارات. [6]

ويعرفها برهان غليون على أنها تتجاوز الطرح الكلاسيكي للعلاقة بين المركز والمحيط وما تدفع إليه من ترابط في الأحداث التاريخية والتكوينات الاقتصادية الاجتماعية، وآليات تحقق هذا الترابط، إنها تتجسد في نشوء شبكات اتصال عالمية فعلا تربط جميع الاقتصاديات والبلدان والمجتمعات وتخضعها لحركة واحدة. [7]

4- العولمة الثقافية:

ما تهدف إليه العولمة الثقافية هو إيجاد ثقافة عالمية، تعني بتوحيد القيم، حول المرأة والأسرة, وجميع ما يمكن أن يندرج تحت لفظة (الثقافة)، فهي توحيد للثقافات بغير حدود، وآلة ذلك الإعلام بوسائله المختلفة، والاتصالات بقاطاعاتها المتعددة، وهذه العولمة مبنية على سرعة انتشار المعلومات، وسهولة حركتها مع إمكانية الوصول إليها بغير رقيب أو حسيب.

فليست العولمة الثقافية إذن انتقالاً من ظاهرة الثقافة الوطنية والقومية إلى ثقافة عليا جديدة تسمى بالثقافة العالمية، بل هي اغتصاب ثقافي وعدواني رمزي على سائر الثقافات، وبخاصة ثقافتنا العربية والإسلامية ، ووفقاً لفرضية (فوكوياما) في (نهاية التاريخ و الإنسان الأخير) فإنه يرى أن الحداثة هي التي ستطغى وتظهر في المجتمعات الراديكالية، وأن مصير الراديكاليات إلى زوال وسقوط بما في ذلك الراديكالية الإسلامية التي لا يمكن أن تكون عالمية.

ثانيا: الثقافة الغربية ومحاولات الهيمنة:

إن المتطلع إلى التطورات والتغيرات المتلاحقة عبر العصور ابتداء من فجر التاريخ كان كل عصر يأخذنا قدما على نحو أكثر سرعة من العصر الذي سبقه . فالعصر الحجري ظل قائما لملايين السنين ، إلا أن عصور المعادن التي تلته قد دامت لفترة لا تزيد عن خمسة آلاف سنة. وقد قامت الثورة الصناعية بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر، أي أنها استغرقت 200 عام على وجه التقريب ، واحتل عصر الكهرباء 40 عاما بداية من أوائل القرن العشرين حتى الحرب العالمية الثانية ، أما العصر الالكتروني (عصر الكمبيوتر) فلم يدم سوى 25 عاما بالكاد ، في حين بلغ عصر المعلومات 20 عاما من عمره مع نهاية التسعينات.

لقد عرفت تقنيات الاتصال والمعلومات خلال السنوات الأخيرة تطورات سريعة وتأثيرات مباشرة على نمط الحياة الإنسانية سواء على الصعيد الاجتماعي أو الثقافي وكذا على المستوى الاقتصادي وذلك بسبب الثورة الرقمية التي عرفها عالمنا المعاصر لا سيما في الدول المتقدمة، هذا الأمر أفرز مجموعة من التحديات خاصة للدول النامية، تحديات ومخاطر أصبحت تمس بالأمن الاجتماعي، والانتماء الثقافي والحضاري، إضافة إلى تحدي اقتصادي يتعلق بجعل التنمية الاقتصادية مرتبطة إلى حد كبير بمدى قدرة الدول على مسايرة هذه التحولات والتحكم فيها قصد استغلال الإمكانات المتوفرة والمتجددة.

لقد اكتسحت ثقافة الغرب كافة أرجاء المعمورة بما فيها عالمنا العربي والإسلامي، هذا العالم الذي حفل تاريخه بالأمجاد والانتصارات وعاش حقبا من الازدهار والكبرياء ولكن:" عندما دق الغرب مرة جديدة أبواب الشرق العربي مطلع القرن التاسع عشر، واستعمره اتخذ التثاقف طابعا مأساويا. الصورة كانت ساطعة: ثمة منتصر ومهزوم، ومن غير معارك عسكرية تذكر، والفوارق الثقافية بدت شاسعة وعميقة، أحدثت في الوعي العربي صدمة وإرباكا، فالمثاقفة لم تقم الآن سوى من طرف واحد، اتخذت شكل تلقن قاصر وناقص مصاب بترهل مزمن إزاء منجم ضخم من المعارف النظرية والتقنية، تأسست عند الغربيين على مدى قرونه."[8]

فإذا تطرقنا إلى الجزائر مثلا نجد أن أشكلة الهوية في الجزائر تتعمق خلال فترة الوجود التركي بالجزائر، ونظرا للتحدي الخطير الذي كانت نفرضه دول الضفة الشمالية للبحر المتوسط، لم يسع الهيئات السياسية والطوائف العرقية لإعطاء الاهتمام بالمشاريع الثقافية أو المشروع الثقافي الوطني خصوصا وما يحدث ثقافيا واجتماعيا عموما، ولعل السبب في ذلك هو محاولة صناعة الاستجابة المناسبة والقوية على قدر التحدي الذي كانت تفرضه الدول الأوربية، حيث توحدت الجهود صوب الأحداث العسكرية وظاهرة الجهاد التي وحدت الكل بربرا وعربا وتركا لصد الخطر الأوروبي. ولكن الأكيد أن الكل كان يساهم في هذا التعميق الذي ظل ينحت في صورة الهوية الثابتة ويتجه بها نحو الهوية الضائعة، وزادت فترة الاستعمار الفرنسي الأمر أشكلة وأصبح أكثر حدة وعمقا، حيث ركزت الدراسات التاريخية على سياسة

التفريق العرقي، التي صورت المجتمع الجزائري و كأنه بناء اجتماعي يتحول إلى تجمع طارئ مفكك على رأي الأنثربولوجيين.[9]

بلا شك أن المعطى الثقافي والتربوي يعتبر من العناصر الرئيسية التي لها دخل مباشر في تشكيل الهوية والخصوصية المحلية التي تشير أغلب الدراسات والأبحاث إلى أنها قد تكون المستهدف الأول للاكتساح العولمي ، من خلال محاولة فرض نموذج ثقافي واحد يكتسح الثقافات الجهوية بما يجعلها منمطة، وفق النموذج المعولم ، وهذا ما حدى بالعديد من الباحثين والمختصين التربويين والأنثروبولوجيين في العديد من المجتمعات للاشتغال بالبحث في مجال الهوية المحلية.

واختلفت رؤى الباحثين في هذا المجال فبعيدا عن التثاقف هناك من رأى أن الأمر أكثر من ذلك فهو عبارة عن تغريب أو غربنة لمجتمعات العالم النامي، وصار من أبرز المحددات الدالة على التغير الثقافي الحاصل في هذا المجال والذي يتضمن التغير في الجانب المادي، وبصورة أكثر عمقا في الجوانب اللامادية كالنظم والقيم والاتجاهات وطرائق التفكير ... وذلك من خلال تشرب عناصر الثقافة الغربية، والتهليل لها وإبراز محاسنها وتبنيها كمؤشرات دالة على التقدم والتحضر، وغالبا ما يحصل هذا على حساب الثقافة المحلية التي ينظر إليها في هذه الحالة على أنها رمز الرجعية والعائق أمام التطور و التحديث.

وفي هذا الصدد يرى برهان غليون أن العولمة ليست هي المنشئة لسيطرة ثقافة على ثقافة أخرى، ولكنها منشئة لنمط جديد من السيطرة الثقافية، وليس للثقافات الأخرى أي مستقبل بالفعل إلا إذا أدرك أصحابها طبيعة هذا النمط الجديد من السيطرة الثقافية وآلياته، وتتبع أهمية مفهوم الهوية الثقافية من واقع أنه لا يمكن أن توجد جماعة مستقلة، أي ذات إرادة ووعي مستقلين ينجم عنهما ممارسة تاريخية مستقلة أيضا، أو مشروع جماعي من دون موارد ثقافية متميزة، فإذا فقدت الجماعة تميزها الثقافي، أي مواردها الثقافية الخاصة التي لا يشاركها فيها غيرها، فقدت هويتها كجماعة مستقلة، واندمجت في غيرها، سواء من خلال تمثل ثقافة أخرى، أو بالخضوع العلمي لها مع الاحتفاظ بملامح ثقافية متكلسة لا تتفاعل مع البيئة ولكنها تعكس انتماءات تاريخية.[10]

وكان المفكر محمد عابد الجابري قد رفض أن تكون العولمة مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي، بل هي أيضًا بالدرجة الأولى أيديولوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم .إنها تسعى لتعميم نمط حضاري يخص بلدًا بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات على بلدان العالم أجمع، أيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته.

إن التقاء الهويات المتباينة لا يقود بالضرورة إلى التصادم، انه سنة من سنن التاريخ، ومن سنن الوجود البشري بل إن الالتقاء ومهما كانت ظروفه وشروطه التاريخية غالبا ما يكون دافعا إلى التقدم، وبخاصة إذا كان اللقاء في إطار غير مغلق، لكن طبيعة التحولات التي شهدها العالم واتجاهه نحو العالمية المبنية على نمط هيمنة أحادي القطب، أفرز سيطرة قيم الانغلاق، ما قاد إلى الصدام المأساوي

والتسليم الأعمى بأفضلية هذه الهوية على أخرى، اعتمادا على فهم تطوري للتاريخ ينطلق من تصوره كخط متصل تشكل الحضارة الغربية أعلى مستوياته، فلا يتم الاعتراف بالتحضر إلا حيث الأعراف والأفكار الشرقية تترنح أمام المدنية الغربية.[11]

لقد كانت ثقافة الحوار والدراية بمكوناتها، وكذا التمسك بآليات الحوار في الأقوال والممارسات في نطاق التفاعلات اليومية سواء الفردية–الفردية، أو بين الفئات والطبقات، أو بين الجماعات والمذهبيات داخل المجتمع الواحد،أو في إطار العلاقات سواء البينية داخل الدولة الواحدة، أو العلاقات مع الآخر..." لقد كان الحوار دائما المبدأ الأساسي في معاملة المسلم لغيره في الغرب الإسلامي، إنه حوار يقوم على المجادلة بالتي هي أحسن، وعلى الإقناع بالمنطق السليم الذي لا يستسيغ الرّبط بين الثقافة أو الحضارة والصدام، لأن الصدام يجب ألاَّ يكون مبادرة المسلم، فهو يؤدي إلى الدماء والدمار، بينما الثقافة والحضارة معناهما تهذيب الأخلاق، وتقويم السلوك، والسلام والعمران.[12]

فآثار التغريب في الكثير من المجتمعات النامية ملحوظة على العديد من الأصعدة والبناءات، فتأثير الثقافة الغربية على البناء الاجتماعي التقليدي في المجتمع العربي أدى إلى اتساع الهوة بين الطبقات لا سيما الطبقة العليا والطبقة الدنيا، في المجتمع وغاب ما يسمى بالمتصل الثقافي، هذا بالإضافة إلى اختلال التوازن الاجتماعي التقليدي في معظم البيئات العربية، وغياب العديد من الأفعال والعمليات الاجتماعية التي كانت تؤدي وظيفة الإشباع الروحي والجمالي مما يضفي على الحياة نوعا من الطمأنينة والثقة والهدوء والاتزان.

ومن مظاهر التغريب الأخرى نجد غياب العديد من أشكال التنظيم، وآليات الضبط، واختفاء العديد من المؤسسات كالعائلة الممتدة مثلا، بالإضافة إلى تمزق الروابط الأسرية، وبروز ظواهر الانحلال والانحراف في البيئات الحضرية، وازدياد الهجرة من الريف إلى المدينة بحكم أن هذه الأخيرة تعني فرصا أوفر للعمل، وخدمات أحسن في العديد من المجالات.

أما في الجانب الثقافي والفني فنجد حدوث تغيرات كثيرة في جانب الفنون ومحاولة انتزاعها من انتماءاتها الثقافية، بالإضافة إلى انحسار المهن التقليدية وفقدان الكثير من الانتاج الرمزي الثقافي في ظل الغزو المتزايد للموضات الغربية، وانجذاب الأفراد نحو تبني الطرائق والاتجاهات الغربية في التفكير، ومحاولة اكتساب السلوكيات الوافدة.

أما في الجانب الديني فعلى الرغم من تبني الحضارة الغربية للأسس العلمانية، غير أن محاولاتها لتنصير العالم الإسلامي خصوصا ونشر المسيحية في كافة أنحاء المعمورة عموما من الأهداف الرئيسية التي يخطط الغرب لها ويقدم في سبيل ذلك كل المساعدات والتسهيلات، وعقد المؤتمرات– كمؤتمر كولورادو على سبيل المثال– والندوات، لوضع الخطط الذكية والناجعة لتنفيذ هذه المهمة التي تعتبر الجانب المهم في إطار العولمة.

ففي هذا المجال يذكر بعض المفكرين : أنه بدلا من الاعتراف المتبادل والقبول المتبادل بالديانات السماوية الثلاث– وهو ما صنعه الإسلام إزاء اليهودية والمسيحية وكل الرسالات والكتب والنبوات، وبدلا من التعاون على تفعيل منظومة القيم الإيمانية... رأينا بروتوكولات التنصير وقساوسته تخطط لعولمة الدين، أي اجتياح الإسلام على وجه الخصوص..لتتكامل منظومة العولمة، التي تمثل اجتياح الغرب للشرق، والشمال للجنوب، والحضارة الغربية للحضارات غير الغربية في مختلف الميادين في " منظومة القيم" و" مفاهيم وتطبيقات حقوق الإنسان" وحتى" الاقتصاد" وحتى في الدين.

وفي حالة الاتصال بالآخرين كما هو الحال في اكتساب الثقافة الغربية يهتز التوازن القديم بين ثقافة الواقع وثقافة القيمة، وكما أوضح كروبر kroeber يمكن لمكونات الواقع في الثقافة، أن تستعار بسهولة وبسرعة أكثر من مكونات القيمة في الثقافة، ولذلك غالبا ما يتخلف قبول ثقافة القيمة، بينما تقبل ثقافة الواقع بسرعة، ويعد ارتباط المجتمع عاطفيا بقيمه الثقافية، ومقاومته لدخول أي عناصر قيمية أجنبية أو جديدة أحد أسباب هذا التخلف، وعلى أية حال فإذا كانت ثقافة الواقع وثقافة القيمة تترابطان، وتعتمد كل منهما على الأخرى، فانه لا يمكن أن نتوقع لمكونات الواقع في ثقافة ما، أن تؤدي نفس الوظيفة في ثقافة أخرى، إذا احتفظت الأخيرة بمكوناتها القيمية الخاصة بها.[13]

إن التمعن العميق في الثقافة الإنسانية لا يظهر وجود ثقافات كونية حقيقية محتكرة فقط من قبل ثقافة معينة، حتى ولو كانت تلك الثقافة هي الثقافة الغربية، فكونية القيم، واعتبارها نماذج فوق تاريخية وفوق وجودية إنما هي وهم، وبما أن معاني الأنساق الثقافية مختلفة، فمن الطبيعي أن يظهر عدم قبول للثقافة الغربية التي لها حيثياتها الخاصة بها، ذلك أن الحضارة الغربية وبدافع الحفاظ على مصالحها فهي تبشر بثقافة من طراز خاص من أجل خدمة أهدافها، وعلى الغرب كما يقول لا توش أن يسأل عن همجية الحضارة الغربية، بل وحتى تعصبها في نظر الآخرين، فهناك أشياء عديدة في الأخلاق والعادات الغربية تبدو شنيعة ووحشية في نظر المجتمعات غير الغربية، وإذا كانت هذه المجتمعات قد سمحت بها أخيرا، فان ذلك سببه أنها وجدت نفسها مضطرة.[14]

ثالثا: وسائل التأثير الغربي على الثقافات المحلية :

إن استقراء تاريخ التواصل والتلاقح والتدافع والصراع الحضاري لدى الإنسان منذ قرون عديدة، يبين سعي كل حضارة زمن ازدهارها إلى إحراز التفوق والتوسع على حساب الآخرين، فقد حاولت الحضارات القديمة في زمن كانت فيه وسائل الاتصال بمنظورنا الحالي ومعطيات عصرنا تبدو بدائية وبسيطة وبطيئة الوظيفة، حاولت أن تسيطر على ما جاورها من أعراق وثقافات أخرى .

غير أن عصرنا الحالي اختلفت فيه أشكال السيطرة والرغبة في احتواء الآخر وتعددت وسائلها، فبعد عصر اكتشاف المعادن والذي دام قرابة خمسة آلاف سنة، قامت فيما بعد الثورة الصناعية والتي استغرقت مئتي سنة على وجه التقريب، ثم احتل عصر الكهرباء أربعين عاما، أما العصر الالكتروني" عصر الكمبيوتر: فلم يدم سوى خمسة وعشرين عاما، في حين بلغ عصر المعلومات عشرين عاما من

عمره مع نهاية التسعينات، وبقدر ما كان لتكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة من ايجابيات فقد طرحت لدى العديد من الثقافات والبلدان والكيانات والجماعات بعض التحديات والمخاطر وكان من أبرزها تهديد الهوية المحلية، ومحاولة هيمنة ثقافة الآخر.

لقد عرفت تقنيات الاتصال والمعلومات خلال السنوات الأخيرة تطورات سريعة وتأثيرات مباشرة على نمط الحياة الإنسانية سواء على الصعيد الاجتماعي أو الثقافي وكذا على المستوى الاقتصادي وذلك بسبب الثورة الرقمية التي عرفها عالمنا المعاصر لا سيما في الدول المتقدمة، هذا الأمر أفرز مجموعة من التحديات خاصة للدول النامية، تحديات ومخاطر كالتحدي الاقتصادي الذي يتعلق بجعل التنمية الاقتصادية مرتبطة إلى حد كبير بمدى قدرة الدول على مسايرة هذه التحولات والتحكم فيها قصد استغلال الإمكانات المتوفرة والمتجددة كما أصبحت التحديات تمس كذلك بالأمن الاجتماعي، والانتماء الثقافي والحضاري للكثير من البلدان. تمكن تكنولوجيات المعلومات والاتصال، بالإضافة إلى وسائل الإعلام التقليدية والحديثة، الأشخاص المهمشين والمعزولين من أن يدلوا بدلوهم في المجتمع العالمي، بغض النظر عن نوعهم أو مكان سكنهم. وهي تساعد على التسوية بين القوة وعلاقات صنع القرار على المستويين المحلي والدولي. وبوسعها تمكين الأفراد، والمجتمعات، والبلدان من تحسين مستوى حياتهم على نحو لم يكن ممكناً في السابق. ويمكنها أيضاً المساعدة على تحسين كفاءة الأدوات الأساسية للاقتصاد من خلال الوصول إلى المعلومات والشفافية.(15)

ويمكن لتكنولوجيا المعلومات والاتصال توصيل منافع الإلمام بالقراءة والكتابة، والتعليم، والتدريب إلى أكثر المناطق انعزالاً. فمن خلال تكنولوجيا المعلومات والاتصال، يمكن للمدارس والجامعات والمستشفيات الاتصال بأفضل المعلومات والمعارف المتاحة، ويمكن لتكنولوجيا المعلومات والاتصال نشر الرسائل الخاصة بحل العديد من المشاكل المتعلقة بالأشخاص والمنظمات وغيرها.

إضافة إلى امتلاك الغرب للتكنولوجيات العالية والمتطورة وعمل من خلالها على إيصال ثقافته ونشرها عبر كافة أرجاء المعمورة، فالدول الغربية من خلال سيطرتها على الكثير من الهيئات والمؤسسات الدولية تعمل من خلالها على محاولة غربنة دول العالم غير الغربية خصوصا منها ذات الانتماء للحضارات الشرقية، وبصورة أخص الدول العربية والإسلامية.

وفي هذا الصدد يذكر محمد عمارة أنه في ظل هيمنة الغرب على المؤسسات الدولية، وخاصة مجلس الأمن الدولي الذي أصبح شبيها بمجلس الأمن القومي الأمريكي، أخذ الغرب يقنن منظومة قيمه في مواثيق يسميها دولية ليفرضها باسم الأمم المتحدة على العالم بأسره، صنع ذلك في مؤتمر السكان والتنمية بالقاهرة سنة 1994، وفي مؤتمر المرأة في بكين سنة 1996، وكذا السياسات الرامية إلى تغيير الهياكل الأسرية، ومساواة المرأة بالرجل بل تمكين المرأة ... إنها نماذج من منظومة القيم الغربية التي قننتها وعولمتها الحضارة الغربية باسم المنظمة الدولية، والتي نصت في وثيقتها على أنه ينبغي للحكومات

أن تلتزم على أعلى مستوى سياسي بتحقيق الغايات والأهداف الواردة في برنامج العمل، وأن تقوم بدور قيادي في تنسيق وتنفيذ أعمال المتابعة ورصدها وتقييمها، وإعمال الضمانات وآليات التعاون الدولية لتنفيذ هذه التدابير.[16]

أما في الجانب الاقتصادي فقد محتوم في النظام الاقتصادي العالمي على الدول النامية أن تتبنى الرأسمالية، وستظل في ارتباط دائم بالاقتصاد الغربي الرأسمالي في حالة نشاطه أو ركوده، والتأثر بما بلغه من اختلالات وفوارق فاحشة، وما يثيره من مغامرات وغارات مالية على الدول النامية التي تصاب بالذعر في غالب الأحيان، هذا بالإضافة الى تصدير ثقافة الدول الغربية عبر المعاملات التجارية الى الدول النامية والعمل للتأثير على ثقافتها المحلية.

أما في الجانب الديني فعلى الرغم من تبني الحضارة الغربية للأسس العلمانية، غير أن محاولاتها لتنصير العالم الإسلامي خصوصا ونشر المسيحية في كافة أنحاء المعمورة عموما من الأهداف الرئيسية التي يخطط الغرب لها ويقدم في سبيل ذلك كل المساعدات والتسهيلات، وعقد المؤتمرات– كمؤتمر كولورادو على سبيل المثال– والندوات، لوضع الخطط الذكية والناجعة لتنفيذ هذه المهمة التي تعتبر الجانب المهم في إطار العولمة.

ففي هذا المجال يذكر محمد عمارة قائلا: أنه بدلا من الاعتراف المتبادل والقبول المتبادل بالديانات السماوية الثلاث– وهو ما صنعه الإسلام إزاء اليهودية والمسيحية وكل الرسالات والكتب والنبوات، وبدلا من التعاون على تفعيل منظومة القيم الإيمانية... رأينا بروتوكولات التنصير وقساوسته تخطط لعولمة الدين، أي اجتياح الإسلام على وجه الخصوص..لتتكامل منظومة العولمة، التي تمثل اجتياح الغرب للشرق، والشمال للجنوب، والحضارة الغربية للحضارات غير الغربية في مختلف الميادين في " منظومة القيم" و" مفاهيم وتطبيقات حقوق الإنسان" وحتى" الاقتصاد" وحتى في الدين.[17]

وساد ادعاء في الأوساط الغربية أن الخطر الإسلامي يتمثل في احتمال سيطرة المسلمين على العالم في غضون عقود قليلة مستخدمة التنبؤات والتقديرات الإحصائية عن تزايد السكان، وارتفاع نسبة المسلمين إلى المرتبة الأولى خلال القرن الحادي والعشرين، فليس أكثر من حملة تضليل تقوم على تحميل الأرقام والإحصاءات نتائج سياسية لا علاقة لها بتلك الأرقام، وليس سوى فرضيات أملتها هواجس أمنية غربية تعتبر أن استقلال الدول غير الغربية وسيادتها، هو بمثابة تهديد فعلي للغرب يستوجب المواجهة الفورية، أو تهديد محتمل يتطلب الحذر والاستنفار أو التطويق والحصار.[18]

رابعا: التعامل الناجح مع العولمة:

إن المحافظة على بقائنا لا يكون بالاختيار الذي يعبر عن موقف الاندفاع والهرولة واللحاق بالركب دون فهم لطبيعة ما يجري وما يمكن أن يؤدي إليه عولمة التعلم، والأصح أن نتوجه نحو تعلم العولمة، أي فهمها وتعرف مبادئها وافتراضاتها والنتائج المترتبة عليها وتدريب أطفالنا وشبابنا على فنيات وآليات التعامل معها وإدراك ما تتضمنه من تهديدات وفوضى، فالعولمة ليست شرًا خالصًا كما أنها

ليستخيرًا محضًا، وإنما هي شأنها شأن كل التحديات التي واجهت الإنسان طوال تاريخه تجمع بين المخاطر والإمكانيات.[19]

ويرى العديد من الباحثين أن هناك جملة من الأساليب والمخططات القريبة والبعيدة المدى يمكننا اعتمادها كي نكلل بالنجاح في عصر العولمة، فنحافظ على ثوابتنا وهويتنا ونحقق تفاعلا ايجابيا مع الظاهرة، حيث يخرجنا من الهامشية الحالية التي نحياها، ويخلصنا من عقدة الخوف من الذوبان في الآخر. ومن أبرز الخطط في هذا المجال نذكر[20] .

-إحداث تغيير أساسي في توجهاتنا ومواقفنا النفسية التقليدية من خلال التخلي عن الموقف الدفاعي التقليدي، وإحلال محلها الثقة بالنفس والأمل في المستقبل.

-تبني مبادرات ايجابية وبناءة بهدف تعديل النظام العام المألوف، وزيادة تطوير التعاون الجماعي.

-الاعتراف بقصور أنظمتنا الاجتماعية والثقافية والعمل على اختراق الهامشية والاتجاه صوب المواقع العالمية والتخلص من التبعية.

-العمل للمشاركة الفعلية والفعالة في الجهود الحضارية الإنسانية من خلال المشاركة مع بقية الثقافات الإنسانية الحية والعاملة وذلك كي نتمكن من تقويض أسس السيطرة الثقافية الأحادية وتعزيز إطار التعددية الثقافية الكونية في إطار الاحترام والتعاون والتفاعل المثري.

-التفكير في حلول مبدعة وجديدة لمشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، أي إعادة بناء الذات ولكن ليس بمنطق الدفاع عنها والتغني بأمجادها ومزاياها والطعن في خصومها، ولكن الأمر يتطلب موقفا مفارقا، أي عدم التسليم بهامشيتنا الفعلية، وبالتالي امتلاك وعي حاد بالسيطرة الثقافية والحضارية دون أن يتولد لدينا انهزام أمام الآخر، وإنما التعامل معه من مستوى الندية.

-الدفاع عن هويتنا لا يتحقق من خلال الحفاظ عليها كما هي، بل من خلال إعادة بنائها وفق ما تتطلبه العولمة و ضرورة مسايرة الثورة العلمية التقنية، أي بناء العالمية منها في أفق التعددية الثقافية.

كما يرى الجابري أن العالمية هي البديل الشرعي للعولمة على حد قوله، ونشدان العالمية في المجال الثقافي كما في غيره من المجالات طموح مشروع ورغبة في التعاون والحوار، إنها طريق الأنا للتعامل مع الآخر بوصفه أنا ثانية.[21]

خـاتمة :

إن من أبرز المعاني الرئيسية للهوية الوطنية هو انسجام وتماثل الوطن مع ذاته من خلال إحساسه بوجود خصوصيات تميزه عن الآخر، وهذه الخصوصية تتولد من اجتماع عوامل عدة منها الديني واللغوي والاقتصادي والجغرافي وغيرها من المقومات الأخرى، والهوية الثقافية للوطن هي تمسك أفراده بمكونات مجتمعهم التاريخية دون جمود أو جحود، فالخصوصية وفق النواميس والقوانين الاجتماعية والطبيعية متغيرة ومتطورة بتغير الأوضاع وحدوث الوقائع سلما وحربا، وهي في تعامل وانفتاح دائم على غيرها من الهويات

وإذا كانت عولمة الإعلام هي سمة رئيسية من سمات العصر المتسم بالعولمة وهي امتداد أو توسع في مناطق جغرافية مع تقديم مضمون متشابه وذلك كمقدمة لنوع من التوسع الثقافي نتيجة ذلك التطور لوسائل الإعلام والاتصال، التي جعلت بالإمكان فصل المكان عن الهوية، والقفز فوق الحدود الثقافية والسياسية، والتقليل من مشاعر الانتماء إلى مكان محدود، وفي ظل هذا التحدي المفروض من الثقافة الغربية تمتلك العديد من الثقافات المحلية آليات مناعية تمكنها من الدفاع والمسايرة والتكيف وبالتالي تحقيق الاستمرارية ، وتتفادى الذوبان والزوال، وتسجيل الحضور في عالم العولمة.

*** قائمة المراجع :**

1-ميلفيل هرسكوفيتز: أسس الأنثربولوجيا الثقافية، ترجمة رياح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973.

2-علي بن محمد الجرجاني: التعريفات، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1938.

3-محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 1999، ص06

4- Pierre Bonte et Michel Lzard, Dictionnaire de l ethnologie et de l anthropologie,Quadrige\PUF, 4e edition,2010.p.346

5- Hubert vedrine. Mondialisation et pensée unique. In "la méditerranée a l'heur de la mondialisation", cahiers de la fondation abderrahim bouabid .N 27. 1997.

6-محمد عمارة: مرجع سابق، ص14.

7-برهان غليون: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سورية، 2002، ط2،،ص16.

8-محمد إسماعيل زكي، الأنثربولوجيا و الفكر الإسلامي، دار عكاظ، السعودية 1972، ص 240.

9-أنطوان سيف: وعي الذات وصدمة الآخر ،في مقولات العقل الفلسفي العربي، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، 2001، ص05.

10-أحمد طالب الإبراهيمي: حوار الحضارات، مقال منشور في كتاب العربي "الإسلام والغرب 49"، 2002، ص 117.

11-برهان غليون وآخر: مرجع سابق ،ص47، ص48 .

12-عزيز مشواط: في سوسيولوجيا الهوية، تشظي الذات العربية الجريحة، مجلة رؤى تربوية، ع27، ص71.

13-كمال التابعي: تغريب العالم الثالث، دراسة نقدية في علم اجتماع التنمية، دار المعارف، القاهرة، 1993، ص191،ص192.

14-سيرج لاتوش: تغريب العالم الثالث، ترجمة هاشم صالح، الدار البيضاء، المؤسسة العربية للنشر والإبداع، 1993، ص186.

15-مؤتمر القمة العالمي لمجتمع المعلومات- جنيف 2003 وتونس العاصمة 2005- http://www.un.org/arabic/conferences/wsis/fact6.ht

16-محمد عمارة مرجع سابق: ص25،ص28

17-محمد عمارة: مرجع سابق، ص36.

18- محمد الصالح الهرماسي: مقاربة في إشكالية الهوية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2001، ص156.

19- أبو حطب فؤاد :العولمة والتعليم، بين عولمة التعليم وتعليم العولمة، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، القاهرة،1999.ص6,ص7

20- برهان غليون وآخر: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سورية، 2002، ط2، ص55، ص56.

21- محمد عابد الجابري :العولمة و الهوية الثقافية : عشر أطروحات، مجلة المستقبل العربي، العدد 228،1998 ص17